

الإحياء الشعري في المغرب العربي

كما اجتمعت للبارودي أسباب الفروسية والشاعرية، فقد توافرت للأمير عبد القادر الجزائري¹ قبله أسباب الفروسية والشاعرية، حيث أولاه والده عناية خاصة، بحسن تربيته على العلم والتكوين الديني واللغوي، وتدريبه على الفروسية والسلاح من جانب آخر، وكأني به قد استشعر عظم المسؤولية التي ستوكل إليه حتى قبل دخول المحتلين الفرنسيين إلى الجزائر، حيث بوغت عبد القادر، وهو في مقتبل العمر بالحرب، فأوكلت له الإمارة، وقيادة الجيش، وإدارة البلاد، فاخترت السياسة إلى ميدان المعارك والحروب، ولكنه مع ذلك لم ينس الشعر، فكان صليل السيوف وصهيل الخيل والحمل على العدو يدعو إلى الانتشاء والفخر مثل الشاعر الجاهلي عنترة بن شداد، فهو يقول في قصيدة (بي يحتمي جيشي):

تسألني أم البنين وإنهـا لأعلم من تحت السماء بأحوالي

ألم تعلمي يا ربة الخدر أنني أجلي هموم القوم في يوم تجوالي؟!

وأغشى مضيق الموت لا متهيباً وأحمي نساء الحي في يوم تهوال²

إن هذا الفخر الفردي بالقوة والبطولة، ومخاطبة الأمير لزوجته وابنة عمه أم البنين يجعلنا

نستحضر شعر عنتره، وهو يحمل على الأعداء، ويخاطب ابنة عمه (عبله) قائلاً:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

[.....]

يخبرك من شهد الواقعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ولقد ذكرتكم والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي³

¹ - (ولد الأمير في القيطننة بمعسكر عام 1807، وتعلم في أرزيو بوهران، زار الحجاز لأداء فريضة الحج مع والده، بويج بأمر الجهاد، واشتغل بمقاومة الاحتلال الفرنسي، إلى أن استسلم عام 1947 لقلعة العدد والمدد وندرة المساعدة، حيث اعتقل في سجن أمبواز بفرنسا، ثم نفي إلى سوريا، وفي دمشق خدم الدين والعلم، وأطفاً نار الفتنة هنالك بين المارونيين والدروز، وافاه الأجل في 1883، ودفن بالصالحية، ونقل جثمانه إلى أرض الوطن عام 1966، مما ترك ديوانه الشعري، وكتاب المواقف في التصوف. ينظر عبد الرزاق، بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2000، ص11 وما يليها).

² - الأمير، عبد القادر الجزائري: الديوان، جمع وتحقيق، شرح وتقديم العربي دحو، ط3، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص49.

³ - عنترة: الديوان، شرح محمد علي، ببيضون، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002، ص123.

إن روح عنتره الشاعر الفارس تكاد لا تبرح شعر الأمير، كيف لا وهو الشاعر الفارس أيضاً، وإن اختلف العصر، لكن الخيل ما تزال العدة القديمة الحديثة في مقارعة الأعداء،» نلمس في فخره أثر عنتره والمنتبي، تغنى مثلهما بالشجاعة والبأس والبطش بالعدو ولا غرو في ذلك، فقد عرف المعارك ومارسها ممارسة الجندي والقائد»¹، لذلك نجد الأمير وهو يحاور خيله المتحممة، ويشفق عليها يستحضر وصف عنتره لفرسه، وهو يشكو إلى الشاعر من ضربات الرماح، يقول الأمير:

وبي تتقي يوم الطعان فوارس تخالينهم في الحرب أمثال أشبال
إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمما أقول لها: صبرا كصبري وإجمالي²
ويقول عنتره في هذا المعنى:

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم
مازلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمم³
وهو حين يصف رايات الحرب حين الخروج إلى المعركة والرجوع منها ينسج على منوال
الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم من خلال المعلقة، يقول الأمير:
وأورد رايات الطعان صحيحة وأصدرها بالرمي تمثال غربال⁴
ويقول عمرو بن كلثوم في المعلقة مهددا:

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقيناً
بأننا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا⁵
ولئن افتخر الأمير بصيغة الأنأ، فإن له فخرا بضمير جمع المتكلمين على عادة الشعراء
القدامى أمثال عمرو بن كلثوم من خلال معلقته، فشخصيتهم الفردية تذوب في الجماعة أي

¹ - عبد الرزاق، بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، ص 75.

² - الأمير عبد القادر: الديوان، ص 49.

³ - عنتره: الديوان، ص 126.

⁴ - الأمير، عبد القادر: الديوان، ص 49.

⁵ - أبو زيد، محمد بن أبي الخطاب القرشي: جمهرة أشعار العرب، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1984، ص 141.

القبيلة، في حين كان الفخر لدى الأمير ذا نزعة وطنية، لأنه مرتبط بصراع الوطن المستعمر
الجزائر ضد دخيل غاز مستعمر هو الاحتلال الفرنسي، يقول:

لنا في كل مكرمة مجال ومن فوق السماء لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول وخضنا أبحرا ولها زجال
إذا عنها توانى الغير عجزا فنحن الراحلون لها العجال
ورثنا سؤددا للعرب ييقى وما تبقى السماء ولا الجبال¹

بعث الأمير القيم والأخلاق التي طالما تغنى بها القدامى في فخرهم، وفي مدحهم، وحتى في
مراثيهم من تباه بالقوة والشجاعة، وتفاخر بالكرم والبذل، وعلى طريقة الجاهليين، فإن تلك
المكارم موروثية يتناقلها الأبناء عن الآباء والأجداد، ففي هذا السياق يقول عمرو بن كلثوم
مفتخرا في معلقته:

ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبيننا²

وإلى جانب الفخر فقد نظم الأمير في غرض آخر يعد من فنون الشعر التقليدي وهو الغزل،
لكن الذي عثرنا عليه في الديوان في هذا المضمار لا يعدو بضع مقطوعات، وبضع قصائد،
ولعل التكوين الديني لشخصية الأمير، وميله إلى التصوف إضافة إلى مكانته السياسية في أهله
وطئنه، ومركز القيادي تعد من العوامل التي جعلت الأمير يعرض عن كثرة النظم في هذا
الغرض، بل إن شعر الغزل لديه يراعي العفاف والاحتشام والحياء، فهو من باب الغزل العفيف
الطاهر، وعادة ما يرتبط الغزل عند الأمير بأم البنين زوجته وابنة عمه التي كانت تجمع شرف
النسب إلى حسن الخلق، وجمال الخلق، ومنه هذه الأبيات من قصيدة (جودي بطيف):

جفاني من أم البنين خيال فقلبي جريح والدموع سجال
ولو قلت: دمعي قد ملكت فكاذب بدعواي بل ذا غرة وضلال
وبي ما يزيل العقل عن مستقره فلا تعجبوا إن قيل: فيه خبال
وما هي إلا الروح بل إن فقدتها فإن بقائي دونها لمحال³

¹ - الأمير عبد القادر: الديوان، ص46.

² - أبو زيد، محمد بن أبي الخطاب القرشي: جمهرة أشعار العرب، ص142.

³ - الأمير، عبد القادر: الديوان، ص60.

إنه التعلق بالزوجة وأم البنين والوفاء لها في الحياة بل بعد الممات.

وأما المدح وهو من الأغراض الشعرية القديمة أيضا، فإننا وجدنا شيئا منه صنفه المحقق في باب المناسبات، ومنه قصيدة بعنوان (آمن من حمامة مكة)، نظمها الشاعر في مدح السلطان عبد المجيد عندما خرج الأمير من سجنه، واختار تركيا مقاما له في أول الأمر، وفيها يقول:

أبشر بقرب أمير المؤمنين ومن قد أكمل الله فيه الدنيا إكمالا
عبد المجيد حوى مجدا وعز على وجل قدرا كما قد عم أنوالا
كهف الخلافة كافيها وكافلها وما عهدنا له في لبقن أمثالا
يا رب فاشدد على الأعداء وطأته واحم حماه وزده منك إجلالا
وأظهرن حزبه في كل متجه وسدّن منه أقوالا وأفعالا¹

إنه مدح بعيد عن التزلف أو التكسب أو المراء، فهو يرى في شخص الخليفة حامي الدين ورافع لواء الإسلام ومصدر عزة المسلمين، لذلك استحال المدح دعاء، وانتقل المدح في بقية القصيدة من الفرد إلى الجماعة وهم أصول الخليفة من آل عثمان لأنهم أعزوا الدين ونصروه. وإلى جانب هذا الأغراض التقليدية التي كتبت وفق النظام القديم نظام الصدر والعجز والقافية الموحدة، وعلى منوال القدامى من حيث جزالة اللفظة ومتانة الأسلوب، فقد وجدنا في الديوان قصائد في المساجلات وفي المناسبات، مما جعل الأستاذ عباس بن يحيى يقول: «فأغراض مثل المجاملات والمدح والتوسل لا يمكن إلا أن تتدرج ضمن خط تيار الجمود، بينما غرض الغزل مؤهل للانخراط ضمن هذا الخط بسبب طريقة معالجة الشاعر وأسلوبه، أما الفخر، فإن روح العصر الحديث تميل إلى رفضه، وتصنيفه داخل القديم رغم أنه - في حالة الأمير - يتداخل أحيانا مع شعره الوطني»².

وإن كان للأمير قصيدة طريفة في الوصف ما نعهده من جديد الشعر في العصر الحديث من حيث موضوعها حيث كانت جوابا من الأمير حول سؤال وجهه له أحد أمراء فرنسا في المفاضلة بين البدو والحضر، فأجاب مفضلا حياة البدو على حياة الحضر قائلا:

¹ - الأمير، عبد القادر: الديوان، ص90، 91.

² - عباس، بن يحيى: مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2004، ص47.

يا عاذرا لامرئ قد هام في الحضر وعاذلا لمحِب البدو والقفَر
لا تَضمن بيوتا قد خفَ حملها وتمدحَن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر¹
يبدو الأمير أعرابيا بحثا وبدويا قحا عاش في البادية وسبر أغوارها، ركب الخيل وخاض
الحروب، ومارس الصيد، وأقام في الخيام، ثم يعدد بعض فضائل البادية ومزاياها في آخر
القصيدة:

ما في البداوة من عيب تَضم به إلا المروءة والإحسان بالبدَر
وصحة الجسم فيها غير خافية والعيب والداء مقصور على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى فنحن أطول خلق الله في العمر²
وللأمير شعر في التصوف « يرتبط في شعره بالتوجه العام نحو الإحياء، لأن مضمونه
وبنيته تأسست على العودة إلى التصوف الفلسفي والعرفاني الأول»³. وبذلك يكون الأمير عبد
القادر قد مثل بصدق تيار الإحياء والبعث في الجزائر وفي المغرب العربي.

¹ - الأمير، عبد القادر: الديوان، ص50.

² - نفسه، ص 51.

³ - عباس، بن يحيى: مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر، ص 47.